الغيب والشهادة في القرآن الكريم (٤)

قائماً بالقسط

عبد المجيد بن محمد الغيلي

١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م

موقع رحى الحرف

قائماً بالقسط

عبد المجيد بن محمد الغيلي

١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م

موقع رحى الحرف

(ترقيم الكتاب موافق لنسخة المؤلف)

للاقتباس:

قائماً بالقسط، عبد المجيد بن محمد الغيلي، ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م، منشور على موقع المؤلف: رحى الحرف، ص ...

الفهرس:

مقدمة:

قال تعالى: (شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)، أي: شهد بوحدانيته قائما بالقسط. فهما فعلان مسندان إليه: الشهادة بوحدانيته، وقيامه بالقسط.

وقوله: (قائما بالقسط)، حال منصوب، والمعنى: شهد الله بوحدانيته في حال قيامه بالقسط، والله واحد دائماً وأبداً، وقيامه بالقسط كذلك دائماً وأبداً. ومن ثم فالآية تتحدث عن أمرين متصلين، الأول: شهادة الله بالوحدانية، والثاني: قيام الله بالقسط. وقد تحدثت في الجزء السابق عن شهادة الله بالوحدانية، وسأتناول في هذا البحث: مفهوم قيام الله بالقسط، ومفهوم قيام الإنسان بالقسط.

وقد بينت سابقاً أن الإنسان ليس مأموراً إلا بهذين الأمرين: الشهادة بما شهد الله به (الوحدانية)، والقيام بما الله قائم به (القسط). فهو خليفة الله في أرضه، والخليفة يشهد بما شهد به مستخلِفه، ويقوم بما يقوم به مستخلِفه.

فهذه الآية تبين أن الله (واحد) (قائم بالقسط). والوحدانية خلق الله الخلق كله بها، فهي غاية وجود الخلق ومنهم الإنسان [طوعا وكرها]. وأما القيام بالقسط فهو الغاية الأخرى لوجود الإنسان في الدنيا. فهو شيء استودعه الله إياه، وكلفه أن يقوم به. [طوعاً]. والحساب سيكون وفقا لهاتين الغايتين.

وقد تحدثت في القسم الأول من البحث عن قيام الله بالقسط، وحررت المفاهيم الدالة على: (القيوم) و(قيام الله بالقسط)، وقيامه على كل نفس بما كسبت)، ومفهوم القسط، ثم تحدثت عن تسوية النفس، وارتهان كل نفس بما كسبت، وكيفية قيام الله عليها بكسبها. وتحدثت عن مفهوم الميزان، والفرق بين ميزان الله وميزان النفس وميزان المعاملات، وتوسعت في الحديث عن ميزان النفس، وأنه الدين – دين الإسلام.

وتحدثت في القسم الثاني عن قيام النفس بالقسط، وبينت أن ثمة خطان دلاليان في القرآن الكريم، تتمحور حولها الألفاظ، الأول: (الشهادة بوحدانية الله والإيمان به)، والثاني (إقامة القسط)، بينت الألفاظ في كل خط ومقابلاتها. ثم بينت مفهوم العبادة المحضة وغير المحضة في ضوء هذا التقسيم.

اللهم اجعلني لك: مؤمناً شاكراً عابداً مخلصاً، وإلى الحق مهتدياً، وبه مُصَدّقاً وموقنا. اللهم اجعلني من عبادك الصالحين المحسنين المتقين المفلحين، واجعلني على صراط مستقيم.

عبد المجيد محمد علي الغيلي

الرياض

رمضان – ١٤٣٥هـ / يوليو ٢٠١٤م

abdmmys81@hotmail.com

(١) قيام الله بالقسط:

(أ) دلالات الألفاظ في القرآن الكريم:

سأتناول أربع دلالات: القيوم، وقائم بالقسط، والقسط، والميزان.

دلالة "القيوم" و"قائم بالقسط":

مع المفسرين:

قال الطبري: (قائم بالقسط: الذي يلي العدل بين خلقه. "والقسط"، هو العدل، من قولهم: "هو مقسط" و "قد أقسط"، إذا عَدَل).

وقال البغوي: (قائماً بتدبير الخلق، كما يقال: فلان قائم بأمر فلان، أي مدبر له ومتعهد لأسبابه، وقائم بحق فلان أي مُجَازٍ له، فالله جل جلاله مدبر رازق مُجَازٍ بالأعمال).

هذان قولان للمفسرين المتقدمين، وقول البغوي هو ما سار عليه أكثر المفسرين بعد ذلك.

قال الرازي: (واعلم أن هذا العدل منه ما هو متصل بباب الدنيا، ومنه ما هو متصل بباب الدين، أما المتصل بالدنيا، فانظر أولا في كيفية خلقة أعضاء الإنسان، حتى تعرف عدل الله تعالى فيها، ثم انظر إلى اختلاف أحوال الخلق في الحسن والقبح، والغنى والفقر والصحة والسقم، وطول العمر وقصره واللذة والآلام واقطع أن كل ذلك عدل من الله وحكمة وصواب ثم انظر في كيفية خلقه العناصر وأجرام الأفلاك، وتقدير كل واحد منها بقدر معين وخاصية معينة،

واقطع بأن كل ذلك حكمة وصواب. أما ما يتصل بأمر الدين، فانظر إلى اختلاف الخلق في العلم والجهل، والفطانة والبلادة والهداية والغواية، واقطع بأن كل ذلك عدل وقسط).

وقال ابن عاشور: (والقيام هنا بمعنى المواظبة.. والقسط: العدل وهو مختصر من القُسطاس، روى البخاري عن مجاهد أنه قال: القسطاس: العدل بالرومية، وهذه الكلمة ثابتة في اللغات الرومية وهي من اللاطينية، ويطلق القسط والقسطاس على الميزان، لأنه آلة للعدل. وقد أقام الله القسط في تكوين العوالم على نظمها، وفي تقدير بقاء الأنواع، وإيداع أسباب المدافعة في نفوس الموجودات، وفيما شرع للبشر من الشرائع في الاعتقاد والعمل: لدفع ظلم بعضهم بعضا، وظلمهم أنفسهم، فهو القائم بالعدل سبحانه، وعدل الناس مقتبس من محاكاة عدله).

التعقيب:

سار المفسرون كما ذكرت، على خُطَى البغوي في تفسيره بأن القيام بالقسط هو تدبير الخلق. وسأبين في هذه الفقرات بعض الدلالات.

الفرق بين قوله (قيوم، وقائم):

القيوم،

ورد في قوله تعالى:

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ)، في سورة البقرة،
وكذلك في آل عمران (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)،
وفي طه: (وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا).

قائم،

ورد في قوله تعالى:

(أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ).

و(**قائم بالقسط**)،

ورد في قوله تعالى:

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ).

في هذه الآيات لدينا ثلاثة تراكيب، الأول: القيّوم، والثاني: قائم على كل نفس بما كسبت، والثالث: قائم بالقسط. فـ(القيوم) وصف غير مقيد، و(قائم) جاء وصفا مقيدا في الموضعين.

فالله هو القيوم، أي "مَن يقوم به كل شيء"، فقِوام الشيء بوجوده وحفظه ورعايته والشهادة عليه.

تقول العرب: (قِوام الأمر)، أي عماده ونظامه الذي يحفظه ويمده بأسباب بقائه.

فكل شيء لا يقوم أمره، ولا يستقيم حاله إلا بالقيوم. وذلك أن الله يخلقه أولا، ثم هو لا يغفل عنه، بل يحفظه، ويدبر أمره، ويهديه بنوره فيجليه لوقته. ومن ثم فهو في ملك ربه، ونفوذه، وعلمه. وأي

شيء من دون "القيوم" لا يكون؛ إذ لا يقوم أصلا.

أما القائم على كل نفس بما كسبت، فثمة قيدان، الأول: تقييد القيام بوقوعه "على كل نفس"، والثاني تقييد ذلك القيام على كل نفس بأنه مرتهن بكسبها. كما قال تعالى: (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ). وفي الآية الأخرى (قائما بالقسط)، فقيده بالقسط. ومن ثم فدلالة "قائم" ترتبط بهذه القيود.

وعليه فمعنى كون الله "قائما على كل نفس"، أنه: **"مَن تقوم به كل نفس"**، فقِوام النفس بحفظها ورعايتها والشهادة عليها أيضا.

فـ"القيوم" و"القائم" كلاهما يشتركان في الدلالة العامة، وهي أن الشيء لا يقوم أمره ولا يستقيم حاله إلا بقيام الله عليه.

ولكنهما يختلفان في أمرين:

الأول: المتعلق،

فالقيوم يتعلق بـ"كل شيء"، وقائم يتعلق بـ"كل نفس". فـ"القيوم" يقع على "كل شيء"، ومنه سائر النفوس، فوجودها وحفظها وبقاؤها يقوم على الله. أما "قائم" فيقع على "كل نفس"، فكل نفس يقوم الله عليها بكسبها، فيكون شهيدا عليها، ثم يجازيها بالقسط.

والثاني: مفهوم القِوام

قِوام أمر كل شيء هو وجوده وبقاؤه، ومن ثم فالقيام عليه يكون بالحفظ والتدبير. فالقيوم يحفظ الخلائق كلها، ولا يغفل عن شيء منها، فينتظم أمر السماوات والأرض وما فيهن. قال تعالى: (وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ)، فهو يحفظه ويدبر أمره، ويمده

بأسباب بقائه (وَكَانَ اللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا)، ثم هو سبحانه على كل شيء شهيد بعلمه. كما بينت ذلك آنفا.

وقِوام أمر كل نفس هو حفظها ورعايتها والشهادة عليها، فالقيام عليها يكون بحفظها من كل ما يؤدي بها إلى الضياع والانقراض، ورعايتها بمدها بأسباب الهداية والصلاح والرشاد، والشهادة عليها؛ فهي ظاهرة له ظهورا تاما، والله يعلمها، ويبصرها، وهو خبير بها، وهو وكيل عليها، والوكيل لا يخفى عليه موكله، بل هو قادر على الإتيان به. ومن ثم فقيامه عليها بكسبها؛ إذ يجازيها عليه، فهو قائم بالقسط، لا تخفى عليه مثقال ذرة من كسبها، فلا يظلمها شيئا.

وقد جعل الله حياة كل نفس مرتهنة بكسبها، فبكسبها تحيا أو تموت، فمدّها الله بما يحييها، وبيّن لها ما يميتها (أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا). ولو لم يقم الله عليها لكانت الحياة فوضى، لا خلاق فيها، ولفسد نظامها.

فالقيوم إذن هو من يقوم به كل شيء، وقيومية الله تتحقق بستة أركان، هي: (١) إيجاده (خلقه وتسويته)، (٢) وملكه، (٣) وتدبيره (والتدبير يشتمل على الحفظ والرزق)، (٤) والشهادة عليه. (٥) والإحياء والإماتة، (٦) والتسخير.

أما "قائم بالقسط" فهو من تقوم به كل نفس، وقد حقق الله قيامه بالقسط على كل نفس، بأربعة أركان، هي: تسوية النفس، وإنزال الميزان، إنزال الكتب وإرسال الرسل، والشهادة عليها.

وقد بينت في البحث السابق (شهد الله أنه لا إله إلا هو) كيف أن قيومية الله سبحانه وتعالى وقيامه بالقسط هما بينتان على شهادته بوحدانيته. وفي هذا البحث سأتحدث عن قيام الله بالقسط.

دلالة "القسط":

ذكرت أن قيام الله على كل نفس يكون بحفظها ورعايتها والشهادة عليها، وهذا ما تبينه آيات الكتاب الكريم.

وآية آل عمران تبين أن قيام الله بالقسط. فما القسط؟

في المعاجم أن القِسْط هو العدل، ومن معانيه: الجور، والنصيب، والميزان، ومكيال معين، ومقدار معين. (انظر: لسان العرب، والمفردات في غريب القرآن، ومعجم اللغة العربية المعاصرة، مادة: ق س ط).

وبتتبع استخدامات "القسط" في القرآن الكريم والسنة، وتتبع مشتقات جذر اللفظ في اللغة العربية، يتبين أن القِسْط، هو (**التقدير الدقيق لإقامة الميزان**)، فمن فعل ذلك فقد أقسط [فهو مقسط]، (وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)، **ومن لم يفعل ذلك فقد قَسَط** [فهو قاسط] **(أي جار، ومال عن العدل)**، (وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا).

قال تعالى: (وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ)، **أي: أقيموا الوزن بالتقدير الدقيق الذي يقيم الميزان، ولا يجور به.**

وسأبسط شرح دلالة التعريف بعد الحديث عن الميزان.

□

(ب) تسوية النفس:

ونفس وما سواها:

في آية آل عمران، يبين الحق سبحانه وتعالى أنه قائم بالقسط. والقسط كما عرّفته: (التقدير الدقيق لإقامة الميزان). فجعل الله للنفس ميزانا، قدر فيها تقديرا دقيقا ما ينفعها وما يضرها، ما يحييها وما يميتها، ما يسعدها وما يشقيها، ما ينجيها وما يرديها. ثم أنزل لهم الميزان.

وقد هيأ الله النفوس حين خلقها لهذا الميزان، ثم أنزله مع رسله.

قال تعالى: (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا). **فسوى الله كل نفس بأن خلقها خِلقةً خاصة، بعد نفخ الروح فيها، فمنحتْها هذه الخِلقة إرادة الاختيار والمشيئة، وتهيأت النفس للفجور أو التقوى، فالله هدى الإنسان السبيل، وهو يختار الشكر والإيمان أو الكفر** والتكذيب (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا). **فهما نجْدان هداه الله إليهما، أي منحه القدرة على الاهتداء إلى أي منهما: نَجْد الفجور ونَجْد التقوى** (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ). **(راجع: بحث سوّى ومشتقاتها في القرآن، و بحث من أفعال الخلق في القرآن الكريم).**

هذه التسوية هي كالقالب الذي ينشئه الصانع ثم يركب عليه الأشياء، أو كالقواعد التي يضعها المهندس للبناء. فتسوية النفس هو تهيئة لها لاستقبال "ميزان النفس"، فهي جاهزة لاستقباله، وقادرة على إقامة القسط. ومن ثَمّ فالميزان مناسب تماما لهذه

النفس، ينطبق عليها كما ينطبق الغطاء على الوعاء. وميزان النفس يُقَوّم النفس في الدنيا، ويزكيها؛ حتى تكون جاهزة للخروج إلى النور، ودخول الجنة.

وتسوية النفس تجعلها قادرة على إقامة القسط، فأي نفس ستميز بين الظلم الواضح والعدل الواضح، وتميل بطبعها إلى العدل وتنفر من الظلم. وأي نفس مفطورة على حب الرحمة وبغض القسوة، وأي نفس يمكنها أن تدرك بينات شهادة الوحدانية، وأي نفس يمكنها أن تدرك الخطوط الكبرى للفضائل... الخ. ولا يعني ذلك إدراك النفس للقسط تفصيلا، بل يعني إدراكها له إجمالا.

فهذه هي الفطرة التي فطر الله الناس عليها (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ)، **وهذه الفطرة تعمل باستقامة ما لم يطرأ طارئ فيخلخل عملها، كما يبين ذلك الحديث الذي في صحيح مسلم مرفوعا: (وإنّي خلقتُ عبادي حُنفاء كلّهم، وإنّهم أتتْهم الشياطين فاجتالتْهُم عن دينهم، وحرمتْ عليهم ما أحللتُ لهم، وأمرتْهم أن يشركوا بي ما لم أُنزِّل به سلطاناً)، والحديث المتفق عليه: (ما من مولود إلا يُولد على الفطرة، فأبواه يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ ويُمَجِّسَانِهِ)، وفي رواية (وَيُشَرِّكَانِهِ).**

كما أن النفس مفطورة على الشهادة بالوحدانية، وقد أشهد الله كل نفس عليها بوحدانيته،

(وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ)،

فأقام الحجة عليها، فهي رهينة بما كسبت هي، ولا حجة لأن يقول أحد أنني غفلت أو أن غيري حرفني عن هذه الفطرة، فهو يستطيع أن يتأمل ويتفكر ليصل إلى الحق. وقال تعالى: (خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)، **أي: علمه كيف يصل إلى البينات ويهتدي بها.**

وبهذا يتبين أن النفس مفطورة على الشهادة بالحق وعلى إقامة القسط.

ولكن رحمة الله قضت ألا يعذب نفسا حتى يبعث إليها الرسل، وينزل معهم الميزان؛ ذلك أنها مرهونة بكسبها. قال تعالى:

(وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا)،

وقال: (وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ).

وقال: (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ)،

وقال: (اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ).

فهو ميزان مضمون ألا يكون التحريف ناله، فينزل نقيا من دنس الشياطين ورجس البشر. فاليهود والنصارى – كما أخبر القرآن الكريم عنهم – قد حرفوا ميزان الله، وتلاعبوا به، واشتروا بآيات الله ثمنا قليلا.

وكلما أفسد الناس هذا الميزان فلم يعد صالحا لهداية النفوس – بعث الله رسولا آخر فينزل معه الكتاب والميزان، حتى خاتم الرسل محمد صلى الله عليه وسلم، فأنزل معه الكتاب والميزان، وضمن حفظه دون أن يحرفه أحد من البشر، قال تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ). **فهو ذكر يذكر الناس بفطرتهم، وبميزانهم الذي**

نزل إليهم، ويذكرهم بإشهاد ربهم بوحدانيته على أنفسهم.

وهذا الميزان ينزل للناس مفصلا، يفصل لهم ما يحتاجون إليه ليقيموا القسط، فلا تكون لهم حجة بعد ذلك

(رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا).

ارتهان كل نفس بكسبها.

قرر القرآن الكريم أن كل نفس مرتهنة بكسبها (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ)، **ففي الدنيا: حياتها أو مماتها مرتهن بكسبها، وصحتها أو سقمها كذلك، وقوتها أو ضعفها، وعدلها أو جورها، وتقواها أو فجورها، وكل ما يحدث لها من خير أو شر مرتهن بكسبها... الخ. وفي الآخرة نجاتها أو هلاكها مرتهن بكسبها. وقد قررت آيات القرآن الكريم هذه الحقائق.**

قال تعالى: (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ)،

وقال: (أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ)،

وقال: (أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ)،

فالنفس رهينة بكسبها، والمصائب من كسبها. وقوله (مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ)، **فالحسنة والسيئة كلها بكسب النفس كما قال تعالى** (لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)، **ولكن الحسنة لا تكون إلا بتوفيق الله، فنسبت إليه، والسيئة**

تكون بتقصير الإنسان فنسبت إليه.

وقوله (ويعفو عن كثير)، **أي: يتجاوز الله عن كثير من كسب النفوس في الدنيا، فلا يؤاخذهم به؛ لأنه قد قضى أن المؤاخذة التامة تكون في الآخرة، قال تعالى:** (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى).

قال تعالى: (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)، **فالفساد ظهوره مرتهن بكسب الناس، فهي من أنفسهم، والله سبحانه وتعالى يعفو عن كثير، أي لا يترك كسب الناس يأخذ مداه الكامل في الدنيا؛ لأن الحياة ستفسد فسادا تاما، ولا تبقى على ظهر الأرض دابة. ومن ثم فالله يعفو عن ذلك، وتبين الآيات كيف يعفو الله عن ذلك، قال تعالى:** (وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ)، **فالحسنة (وهي من كسب الناس) تدفع السيئة، فيحدث بعض التوازن الذي يحفظ الأرض من الفساد التام** (ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ).

وقد بين القرآن الكريم أن بعض الأمم السابقة هلكت بما كسبت، (فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ)، **أي هلكوا هلاكا تاما، بما كسبوه من سيئات.**

هذه الآيات تبين أن كل نفس في الدنيا مرتهنة بكسبها، وما يحدث في الأرض من خير أو شر، ومن فساد أو صلاح، فكذلك مرتهن بكسب الناس، والله يعفو عن كثير من هذا الكسب؛ حتى لا تفسد الأرض فلا تعود صالحة للحياة؛ لأن الميزان المنزَل إذا اختل تماما،

تنتهي الحياة، ولذلك تقوم الساعة على شرار الناس، حين يتحطم ميزان النفس في الأرض. قال تعالى: (اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ)، **فالساعة قريبة، وسيكون قيامها حين يتحطم ذلك الميزان الذي أنزله الله.**

وكلما بدأ هذا الميزان يتحطم في الأرض، كان الله يرسل رسولا فيقوم الناس بالقسط، ويرجع الميزان إلى عمله، وقد جعل محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم المرسلين، فأنزل معه الميزان، وتستمر الحياة ما استمر الناس مقيمين لهذا الميزان، فإذا لم يعد إلا شرار الناس، وتحطم الميزان، انتهت الحياة من على الأرض، وقامت الساعة، فيضع الله الموازين القسط. وقد بين سبحانه أن الرسل جاؤوا لإقامة الميزان بالقسط (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ)، **وقال:** (وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ)، **أي: ذكر بالقرآن الذي فيه ميزان الله؛ لأن كل نفس مرهونة بكسبها، فنجاتها أو هلاكها بكسبها. (تبسل): تهلك.**

كما بينت آيات القرآن الكريم أن كل نفس في الآخرة مرهونة بكسبها، (وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ)، **وقال:** (ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)، **فهي توفية تامة لميزانها الذي تأتي به. وقال:**

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)،

وقال: (وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا)،

وقال: (تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ)،

وقال: (لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ).

ومن ثم فالإنسان في ذلك اليوم لا ينفعه إلا ما كسبه من حسنات؛ لأنها هي التي تثقل ميزانه، فينجو. أما من كسب السيئات

فلن تغني عنه شيئا، فهي لا تنفعه، فكأنه جاء وميزانه فارغ [فارغ من مثاقيل الوزن الحقيقي]؛ فالسيئة لا تثقل الميزان، ومن ثم لم يعتد بها في الوزن، قال تعالى: (مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا)، **وقال:** (مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ) **[أي: وما كسب من سيئات في الدنيا، فهي لا تغني عنه، خلافا لبعض تفسيرات الآية]، وقال:** (فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا).

الله قائم على كل نفس بما كسبت

لمّا كانت كل نفس مرتهنة بكسبها، فحياتها أو مماتها، وما تعتورها من حالات مختلفة في الدنيا، ونجاتها وهلاكها في الآخرة، كل ذلك رهين بكسبها، كما بينت. فلم يترك الله النفس سدى، بل قام عليها، فهو قائم على كل نفس (بما كسبت)، أي بسبب ارتهانها بكسبها. ولو لم يقم الله عليها لفسدت الأرض، وما بقي على ظهرها من دابة.

قال تعالى: (أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ)، **أي: أفمن هو قائم على كل نفس كمن ليس كذلك؟! فكيف يكون له شركاء وهم لا يقومون على أي نفس؟**

فقيام الله على النفوس، بأن جعل لها ميزانا (وهو ميزان النفس)، يحفظها من الموت ومن الضعف والسقم والجور والقسوة والغفلة والضلال والعمى... ومن ثم فكل ما تكسبه النفس يوضع في ميزانها، والله شهيد عليه، ولا يخفى منه مثقال ذرة، ثم يوم القيامة

تأتي كل نفس بميزانها، فيجازيها الله بما كسبت.

فقام الله على كل نفس بأن حفظها، ورعاها، وشهد عليها، وكان وكيلا عليها يأتي بها وبكسبها، ويجازيها عليه.

□

(ج) إنزال الميزان:

(ج -١) دلالات الميزان في القرآن الكريم:

قال الزبيدي في تاج العروس: "الميزان: الآلة التي توزن بها الأشياء". وجاء في معجم اللغة العربية المعاصرة: "آلة تُوزن بها الأشياء لمعرفة مقدارها من الثقل، وهو رمز العَدْل".

والتحقيق أن يقال في تعريف الميزان: هو الشيء الذي تُوزن به الأشياء، فيحدد مقاديرَها، ويضبطها ضبطاً تاماً.

قال تعالى: (وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ)،

هنا تكرر لفظ (الميزان) ثلاث مرات، ودلالته العامة واحدة، وهي ما ذكرته، إلا أن لكل لفظ منها دلالة خاصة. فثمة ثلاثة موازين.

الميزان الأول: ميزان الله:

فالميزان الأول (ميزان الله)، هو الذي وضعه الله في خلقه حين خلقهم، فحدد مقدار كل شيء، فكل شيء مضبوط موزون، لا يبغي شيء على آخر.

قال تعالى: (وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠) وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ)، وقال: (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ)،

وقال: (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا)،

وقال: (وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا)،

وقال: (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ

تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)،

وقال: (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)،

وقال: (وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)،

وقال: (مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ)،

وقال: (وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى)،

وقال: (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ)...

وهذا هو الميزان الذي يقدر الله به كل شيء، فيقوم عليه حفظا ورعاية وتدبيرا. وتقدير الأشياء بضبط مقاديرها، فهي مقادير مضبوطة موزونة (وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ) فهو القيوم سبحانه.

وهذا الميزان (الذي وضعه الله) يقوم الله به على النفوس، فيقدر لها ما ينفعها، وما يصلح حالها، فالله قائم بالقسط (قَائِمًا بِالْقِسْطِ)، وبهذا القسط يقضي بين خلقه (وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)، **فيجازي كل نفس بما كسبت** (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ).

فهو حسيب على كل شيء، حتى مثقال الذرة من الكسب يحسبه،

قال: (لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)،

وقال: (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ)،

وقال: (وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا).

فكل مقدار عنده معلوم محسوب، قال تعالى (كِتَابٌ مَرْقُومٌ) **[الكتاب الذي تحفظ فيه أعمال الناس، مرقوم أي: مدون فيه كل**

شيء حتى مثاقيل الذرة من الأعمال، وحتى ما هو أصغر من ذلك]. فتأخذ كل نفس حقها التام دون أن تظلم مثقال ذرة (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ).

الميزان الثاني: ميزان النفس:

والميزان الثاني (ميزان النفس): (أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ)، فهذا هو الميزان الذي أنزله الله سبحانه وتعالى للنفس، لتزن به كل شيء، فتستقيم حياتها، تدرك به العدل من الظلم، والحق من الباطل، والخير من الشر، والفضيلة من الرذيلة، والهدى من الضلالة، والنافع من الضار، والصحيح من الخطأ... الخ.

هذا الميزان يخص النفس، والله قد أنزله للناس ليقوموا بالقسط، قال تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ)،

وقال: (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ).

فقيام الناس بالقسط يعني أن يعطوا لكل شيء مقداره دون زيادة أو نقصان، فإن زادوا أو نقصوا فقد طغوا في الميزان. وأمرهم الله بذلك قال تعالى: (كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ)، **وقال** (قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ)، **فإن فعلوا ذلك فقد استقاموا، أي قاموا بالقسط كما ينبغي.**

والله سبحانه وتعالى سيجازي كل نفس بقدر قيامها بالقسط، أي بقدر مثاقيلها في الميزان، فكل نفس معها ميزان، وكل عمل يعمله الإنسان، فإنه يوضع في ميزانه، ويأخذ مقداره التام. فمثلا: حين

ينطق الإنسان بكلمة، أو يكتبها، تذهب إلى ميزانه، وتأخذ موضعها فيه (خيرا أو شرا)، ولكل كلمة أو حركة أو عمل مقدار مرقوم معلوم. فمن ثم ترتهن كل نفس بكسبها (كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ)؛ **أيّ كفة من ميزانها ترجح، وحين يأتي يوم القيامة يأتي ميزانه معه.**

قال تعالى: (وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ).

فوزن الله هو الحق، الذي يزن كل شيء ولا يظلم مثقال ذرة، فمن ثقلت موازينه من الناس، أي غلبت كفة موازين الخير لديه فقد أفلح، ومن طاشت فقد خسر، ومن ثم فلا وزن ثقيل لديه (أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا).

والميزان الثاني (ميزان النفس) يسميه القرآن الكريم (القسطاس المستقيم)، وقد ورد في موضعين: قوله تعالى: (وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ)، **وقول شعيب لقومه** (أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ). **فقوله (وزنوا بالقسطاس المستقيم)، كقوله: (وأقيموا الوزن بالقسط)، فهي ثلاثة ألفاظ متقابلة: الوزن، والقسط، والإقامة. ولذلك جاء الأمر أولا بالإيفاء بالكيل، ثم الوزن بالقسطاس، ووصف بالمستقيم، فهو ميزان جعله الله مستقيما، أي به استقامة النفوس، وقِوامها.**

الميزان الثالث: ميزان المعاملات:

والميزان الثالث (ميزان المعاملات): ﴿وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾، **فهذا الميزان هو نموذج مادي يزن الناس به الأشياء المحسوسة التي لها ثقل معلوم، يمكنهم من تقديره تقديرا تاما، وضبطه ضبطا صحيحا، دون زيادة أو نقصان.**

فالله يأمرهم بألا يخسروه، كما في الآية، وأمرهم ألا ينقصوه ﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾. **وأمرهم بأن يوفوه بالقسط** ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾.

فهذا الميزان يتعامل به الناس في بيعهم وشرائهم، وكافة معاملاتهم المالية وغيرها. والتشريع المالي في الإسلام إنما جاء لتحقيق الوفاء بالميزان، دون أن يظلم الناس بعضهم بعضا فيه.

موازنة بين سياق الموازين:

الميزان الأول هو ميزان الله الذي وضعه ليزن به كل شيء، فكل شيء عنده بمقدار. والميزان الثاني هو ميزان النفس الذي أنزله الله لتزن به النفس كل كسب تكسبه [والكسب هو العمل]. والميزان الثالث هو ميزان التجارة بين الناس، فيزن به الناس كافة متطلبات معاملاتهم التجارية وما يتعلق بها.

ولو تأملت الآيات القرآنية، فستجد ثمة فروقا في سياق الميزانين الثاني والثالث.

فالميزان الثاني (ميزان النفس)، ورد معه الأمر بـ(الإقامة): ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾، **وقال**: ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾. **والنهي عن الطغيان فيه** ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾.

أما الميزان الثالث (ميزان المعاملات)، فقد ورد معه الأمر بالإيفاء، والنهي عن النقصان أو الإخسار (وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ)، **وقال:** (وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ). **وشعيب دعا قومه:**

(وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ)،

وقال: (فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ)،

وقال: (وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ).

فالناس بمقدورهم ضبط ميزان المعاملات بحيث يوفون به وفاء تاما، فلا ينقصون منه شيئا. فكان الأمر بإيفائه وعدم نقصانه.

أما ميزان النفس فإنه ميزان دقيق، وهناك مواقف وكسوبات لا تستطيع النفس أن تزنها بمثقالها الدقيق، ولكنها تستطيع أن تزنها الوزن العام، فتضعها في إحدى الكفتين، فذلك يمكنها، ولذلك كان الأمر بإقامة الوزن، فإقامته تتحقق بالغلبة، ونهاها عن الطغيان فيه، وليس عن نقصه؛ إذ لا تستطيع تقدير النقصان، بخلاف الطغيان فهي تستطيع تقديره.

وسأضرب مثلا، الإنسان بميزان التعاملات التجارية يأخذ شيئا فيزنه، فيصل فيه إلى أرقام دقيقة جدا، تبلغ أعشاراً من الواحد، نحو: (١,٠٠٠١)، ومن ثم فهو قادر على الإيفاء وفاء تاما دون نقصان. أما النفس فإن المواقف التي تعرض لها، وما يتبعه من عمل تعمله، فإنها تستطيع [بعد التحري والاجتهاد] أن تُقدِّر غلبة الخير من الشر فيه، والحق من الباطل، ولكن دون أن تعطي لذلك تقديرا دقيقا مرقوما. فذلك يكفي في تحقيق إقامة القسط وعدم الطغيان في الميزان الذي أنزله الله.

□

(ج -٢) [الدين هو الميزان]

(ج -٢ -١) تفسير الآية (إن الدين عند الله الإسلام):

قال تعالى: (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ).

قرئت في السبع: إن الدين، وقرأها الكسائي: أن الدين. قال أبو علي الفارسي في الحجة للقراء السبعة [بتصرف]: (كسر الهمزة على الاستئناف، وفتحها على البدلية، من قوله: "أنه لا إله إلا هو"، فكأنّ التقدير: شهد الله أنّ الدين عنده الإسلام، فهو بدل كل من كل. وإن شئت جعلته بدل اشتمال؛ لأنّ الإسلام يشتمل على التوحيد والعدل، وإن شئت جعلته بدلا من القسط؛ لأنّ الدين الذي هو الإسلام قسط وعدل، فيكون بدل كل من كل).

وقراءة الفتح على الاستئناف البياني، وسأبين وجهه في الفقرات التالية.

فالآية الأولى تتحدث عن الشهادة بالوحدانية والقيام بالقسط. فهذه أفعال الله سبحانه وتعالى. والله سبحانه خلق الخلق ليشهدوا بوحدانيته، ويقوموا بالقسط (طوعا أو كرها). فالمخلوقات منقادة لربها، قانتة له، خاضعة له، مسلمة له. فهذا الدين هو ما عليه الخلق كلهم، فالدين عند الله الذي خلق الخلق عليه هو الإسلام.

(ج -٢ -٢) مفهوم الدين:

الدين هو الانقياد والطاعة، وهو اسم للعادة التي يعتادها الشيء، تقول: هذا دِينه أبداً، أي: هذه عادته. فالله جعل لخلقه دِينا،

أي: عادة يعتادونها، وهي عادة الانقياد والطاعة. والدين الذي جعل الله الخلق يعتادونه وينشأون عليه هو الإسلام. فالخلق كله (السماوات والأرض وما بينهن ومن فيهن) قد شهدوا لله بالوحدانية، وقاموا بالقسط، فهم له مسلمون

قال: (أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ)،

وقال: (وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ)،

وقال: (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ).

والله أمر الناس بأن يشهدوا بوحدانيته، وأن يقوموا بالقسط، فهذه أفعال العباد، ومجموعها هو الإسلام.

قال: (فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا)،

وقال: (قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)،

وقال: (فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ).

فالإسلام هو الدين الذي رضيه الله لخلقه، والذي اتبعته الخلائق كلها، وهو الذي رضيه للناس جميعا (هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا)، أي: الله سماكم المسلمين من قبل حين خلق الخلق، وكتب أن الدين عنده الإسلام، وهو الاسم الذي أنزله في الكتب السابقة، و(في هذا)، أي: في القرآن الكريم. فالضمير (هو) عائد إلى الله وليس إلى إبراهيم عليه السلام. (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ)، (وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)، **فالله اصطفى الدين واختاره وهو الإسلام، فإذا اتبعتم ذلك فأنتم مسلمون.** (وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا).

(ج -٢ -٣) الإسلام هو ميزان النفس:

فالإسلام هو ميزان النفس، وكل نفس مرتهنة بكسبها، ولن تخرج من الظلمات إلى النور إلا بإسلام وجهها لله. فأنزل لها هذا الدين، وجعل خلوصها به، (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ)، **أي ومن يبتغ من الخلق غير الإسلام دينا فلن يقبل منه، ومن ثم يكون كسبه كأن ليس شيئا، ولا يغني عنه** (وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ). **وهذه الآية تشمل البشر جميعا، فالإسلام هو دين أبينا آدم ودين الأنبياء كلهم، ويوم القيامة لن يدخل الجنة إلا من كان مسلما** (وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١١١) بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ). **أي: من أسلم وجهه لله، فهو الذي يدخل الجنة. ولذلك وصى إبراهيم بنيه ويعقوبُ ألا يموتن إلا وهم مسلمون.**

فآية آل عمران إذن تبين أن الإسلام هو الشهادة بالتوحيد وإقامة القسط (وليس العدل كما قال المعتزلة)، فقد جعل الله دين الناس وأفعالهم من أفعاله، فأفعال الله هي الشهادة بالتوحيد ولها خلق الخلق وقام عليهم بالقسط. وأمر الناس بذلك، فهذا هو الدين الذي عند الله، قال (وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ)، **أي له الخلق، وله الدين، أي: طاعة الخلق وانقيادهم دائما وأبدا.**

(ج -٢ -٤) الدين القيم

هناك مجموعة من الألفاظ تتصل دلالاتها بما نحن فيه، وهي: الدين القيم، والصراط المستقيم، وملة إبراهيم، و(حنيفا)، وإقامة الدين.

قال تعالى: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ)،

وقال: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ)،

وقال: (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ).

فالدين هو القيم، الذي لا عوج فيه، ولا ميل ولا انحراف عن الحق. وكونه دينا قيّما يعني أن فيه (قِوام) النفس قواما كاملا، أي أن فيه كل ما تحتاجه النفوس لقوامها، فتحيا به حياة كاملة، وتنجو من الهلاك.

وهذه هي صفة الميزان الذي أنزله الله، فالله أنزله ميزانا قيما مستقيما، وسماه القسطاس المستقيم. واستقامته تعني أنه ميزان دقيق، يقدّر ما ينفع النفس وما يضرها تقديرا مفصلا، فتقوم به كل نفس، وبذلك تعلم النفس كسبها الذي ترتهن به، علما بينا، لا غموض فيه، ولا ريب. قال تعالى: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا)، **والله أنزل الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط.**

ووصف الصراط بأنه مستقيم، وأمرهم الله باتباعه (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)، **فهو طريق مستقيم، والطريق المستقيم هو الذي لا عوج فيه ولا ميل ولا**

ضلال. والدين الذي أنزله الله سبحانه وتعالى نزل ليبين للناس معالم هذا الصراط المستقيم، حتى يكون واضحا لديهم، فيتبعوه (وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ). **وقد تكفل الله ببيان هذا الصراط المستقيم** (قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ). **فلا تكون لأحد على ربه حجة.**

فالنفس إذا سارت في هذا الصراط علمت علما مفصلا كل ما تحتاجها لقِوامها، فتستقيم، أي: يكون قِوامها متلائما مع فطرتها التي فطرت عليها، ويكون في ذلك خلوصها ونجاتها. (أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)، **وهو كقوله:** (أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا).

فإذا قامت النفس على ما أقامها الله عليه فقد استقامت. فالاستقامة تعني: قيام النفس على الميزان الذي أقامها الله عليه. وهذا أمره سبحانه وتعالى:

قال: (فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ)،

وقال: (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ).

وقال: (إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ).

وإقامة الدين (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ). **فالأمر بإقامته هو الأمر بإقامة القسط** (كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ).

قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)، **فهي تتحدث عن فعل الإنسان في الإسلام: شهادة بالوحدانية، وإقامة للقسط، [وهي الاستقامة على الدين].**

(ج -٢ -٥) ملة إبراهيم:

قال تعالى: (قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ).

فدين الله هو الدين القيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الملة التي اتبعها إبراهيم عليه السلام. والقرآن الكريم يضيفها إلى إبراهيم (ملة إبراهيم)؛ لأن إبراهيم يمثل الجيل الأخير من البشرية، فهو أبوهم كما قال (وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ)، **وهو أول من أعلن من الجيل الأخير أنه وجه وجهه لربه حنيفا** (إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ). **فقال الله عنه:**

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٢١) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ).

فالصراط المستقيم هو الدين القيّم، وهو ملة إبراهيم التي أمر الله الجيل الأخير من البشرية باتباعها

قال: (فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)،

وقال: (وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ

حَنِيفًا)،

وقال: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ).

وقد رد الله على اليهود والنصارى الذين ادعوا تبعيتهم لملة إبراهيم

(مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ).

وقوله (حنيفاً)، أول من قالها إبراهيم (إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)، **والآية في سياق رؤيته لملكوت السماوات والأرض،**

(فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ).

فإبراهيم كان ينظر إلى شرك قومه وآلهتهم التي يعبدونها، ويستنكر عبادتهم لها. ثم قال: أما أنا فقد وجهت وجهي لربي، وحنفت (أي: مِلت) **عن شرككم إلى التوحيد، والحنيف هو المائل المنصرف عن الشيء إلى غيره، فقوله: حنيفا، يعني أنه مائل عن شركهم إلى توحيد ربه، وهذا كقوله:** (وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ)، **أي: منصرف عنكم وعن آلهتكم، ومتجه إلى ربي، فهو مستقيم باتجاهه إلى ربه، حنيف بانصرافه عن آلهة المشركين.**

فأمر الله لنا بأن نكون حنفاء، أي منصرفين عن الشركاء إلى إله واحد (حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ)، **أي حنفاء لله بانصرافكم إليه لا إلى غيره.**

(ج -٢ -٦) ميزان الدين هو الشريعة

الدين هو توجيه الله سبحانه وتعالى للناس، وهذا التوجيه: أمر ونهي، أمر يأمرهم بأن يفعلوا، ونهي ينهاهم عن أن يفعلوا. كما أن الدين تحليل وتحريم، يحل الله ما يشاء ويحرم ما يشاء (وكل ذلك بعلمه وحكمته ورحمته).

قال تعالى في وصف نبيه الذي يتكلم باسمه: (يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ).

فالله هو الذي يشرع الدين للناس (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ)؛ **إذ هو قائم بالقسط على كل نفس، ولا شريك له في ذلك** (أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ).

ومن نازعه في شيء من هذه الأمور الأربعة: الأمر أو النهي، أو التحليل أو التحريم، فإنما يدعي الشراكة معه.

قال: (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ)،

وقال: (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ)،

وقال: (قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ

وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ)،
وقال: (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ)،
وقال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٨٧) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ).

وسورة الأنعام توعدت المشركين الذين يحرمون ما أحل الله وعيدا شديدا.

فهذا هو الدين، الذي ارتضاه الله للناس جميعا، ففيه ميزانه الدقيق، من الأمر والنهي والتحليل والتحريم، والناس يزنون كسبهم بميزانه. والله سبحانه وتعالى جعله للناس اختيارا وطوعا، ودعاهم إليه، ولم يكرههم عليه، فقال: (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ).

وقوله تعالى: (لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ)، **أي: لو شاء الله لجعل الناس أمة مسلمة، كما جعل أمم الحيوانات، وسائر المخلوقات، فقد جعلها أمة واحدة مسلمة له. ولكنه لم يجعلهم كذلك، بل جعل لهم الاختيار، ليتحقق الابتلاء في ما آتاهم. ولذلك فلكل أمة شرعة ومنهاج. أي شرعة ومنهاج تخالف شرعة الإسلام ومنهاجه، وهذه الأمم التي كفرت بدين الله. [ولست مع من فسر ذلك بأن المراد جعلنا لليهود شرعة وللنصارى شرعة وللمؤمنين شرعة]، فقوله (ولو شاء الله...) يبين أن المراد أنه جعل للناس شِرَعا مختلفة، وهذا كقوله:** (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ)، **فهم لا يزالون مختلفين، واختلافهم يعني أن لكل منهم شرعة ومنهاجا.**

وقد يقول قائل: كيف يجعل الله شرعة الكفر، فالجواب تأتي به الآية (ولكن ليبلوكم)، فالله سبحانه وتعالى أنزل الإسلام، ورضيه للناس، فمن اختار غيره من الشرائع الضالة، فقد اختاره بقضاء الله وقدره، وما تشاؤون إلا أن يشاء الله، وهذا كقوله: (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)، فهو الذي يضل وهو الذي يهدي، وكقوله:

(وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا)،

وقوله: (فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ)،

وقوله: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ).



(ج -٢ -٧) *شريعة الله للبشرية واحدة:*

قال تعالى: (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ)،

فالشريعة التي شرعها الله لنوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد واحدة، (ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ). **فقد جاءت بالشهادة بوحدانيته، وبالقيام بالقسط، وذلك يتضمن: الأمر والنهي، والتحليل والتحريم. فلا اختلاف في ذلك.** (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ).

إن دين الإسلام دين خالد، يتسامى على الزمان والمكان، حقيقة وشعورا، وهذا التسامي هو ما تنطق به آيات القرآن، وقد أوضحنا ذلك. فلا يوجد تعددية في الأديان، فهو دين واحد، يتجاوز حدود

الزمان وآفاق المكان. وقد ارتبط بالخلق كلهم ارتباط خضوع مطلق، وارتبط بالإنسان ارتباط اختيار وإرادة، فإن شاء أسلم وإن شاء أجرم (أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ).

فما الذي يختلف من أمة إلى أخرى؟

هناك بعض الاختلافات، اقتضتها سنن الله في التطور الحضاري للبشر، الناتج عن تراكم المعرفة، والخبرة. فاقتضت سنة الله سبحانه وتعالى أن تكون شريعته صالحة لمن نزلت عليهم زمانا ومكانا.

قال تعالى: (وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ). **فقد حرم الله على أتباع موسى ذلك، وأباحه الله في شريعته الخاتمة. ولذلك قال عن رسوله** (وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ)، **أي يضع عن بني إسرائيل الأغلال التي كانت عليهم، مما حرمه الله عليهم في التوراة.**

ولما كان محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الرسل (وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ)، **كانت رسالة الله الخاتمة صالحة لختام البشر:** (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا)، **وقال** (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)، **وقال** (إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ). **وقال عليه الصلاة والسلام: (من سمع بي من أمتي يهودياً أو نصرانياً ثم لم يؤمن دخل النار).**

ومن ثم فالاختلاف في تفاصيل الأوامر والنواهي والمحللات والمحرمات، بما يجعل الشريعة الخاتمة صالحة للناس جميعا، حتى قيام الساعة؛ إذ لا رسولَ بعد محمد صلى الله عليه وسلم. وليس هنا مجال التفصيل في هذه المسألة.

❖ ❖

وقد تحدثت عن (إنزال الكتب وإرسال الرسل)، وعن (الشهادة على كل نفس)، في بحث: (شهد الله أنه لا إله هو). فأكتفي بذلك.

□

(٢) قيام النفس بالقسط:

قال تعالى: (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ)،

فإنزال الكتاب والميزان إذن؛ ليقوم الناس بالقسط، فقِوام النفس متعلق بما تقيمه من القسط، ومن ثم تتفاوت حياة النفوس وحالاتها من صحة ومرض وضعف وقوة، كما تتفاوت منازل نجاتها أو خسارتها، بحسب القسط الذي أقامته. وإقامتها للقسط هو استقامة، فالاستقامة كما بينت: أن تقوم النفس على ما يكون به قِوامها.

وقد أنزل الله للناس ميزانا، فيه مقادير مبينة لكل ما ينفع النفس أو يضرها. وهذا الميزان جاءت به الرسل الذين أرسلهم الله. ولذلك وصف الله الدين بـ(القيم)، أي الذي يتحقق فيه قِوام النفس تحققا تاما، فعلى قدر أخذ النفس به يكون قدر استقامتها.

ذكرت سابقا أن القسط هو (التقدير الدقيق لإقامة الميزان)، فميزان النفس الذي أنزله الله به مقدار كل شيء من خير أو شر، وإقامة القسط يكون باجتهاد النفس في وزن الأمور قبل الإقدام عليها أو التأخر عنها. (وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ). **فتزن النفس ما سوف تكسبه قبل أن تكسبه، وتعرف مقداره في الميزان، ومثقاله الذي سيكون لها (أو عليها). ومن ثم تتخذ قرارها بأن تتقدم (بما تكسب، والكسب يشمل الفعل والترك)، أو تتأخر (بما تكسب). قال تعالى:** (لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (٣٧) كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ)، **فمن كسب خيرا فقد تقدم، ومن كسب شرا فقد تأخر، ولن يغني عنه كسبه شيئا؛ إذ لا**

قيمة لهذا الوزن.

والقيام بالقسط يتجسد في أفعال كثيرة، منها:

- **الحكم بالعدل** (وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ)،
- **والشهادة** (كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ)،
- **والرعاية** (وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ)،
- **وإصلاح ذات البين** (فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)،
- **والأمر بالمعروف** (إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)،
- **وإيفاء المكيال دون نقصان** (وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ)،
- **وإقامة جسور التواصل مع من ليس بمسلم** (لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)،
- **وكتابة الدين إلى أجله** (وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا)،
- **ونسب الإنسان إلى أبيه** (ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ).
- **وغير ذلك...**

(أ) الشهادة بالتوحيد وإقامة القسط (خطان دلاليان):

تبين لنا أن الإنسان مأمور بأمرين: الشهادة بما شهد الله به (الوحدانية)، والقيام بما قام الله به (القيام بالقسط).

والشهادة يحققها الإنسان بالإيمان بالله إلها واحدا، فيوجه

وجهه إليه، ويسلم نفسه له، ويسجد بين يديه، ويستعين به، ويعبده، ويذكره، ويتوكل عليه. والقرآن الكريم يتحدث عن هذا التحقق في آيات كثيرة. فمن فعل ذلك فقد آمن، ومن لم يفعل ذلك فقد كفر. فالإيمان أو الكفر لا يقتصر على الاعتقاد، ولكنه يشمل الاعتقاد والفعل المتعلق بذلك الاعتقاد.

وإقامة القسط، يحققه الإنسان بعمل الصالحات. وهو كسب النفس الذي تكسبه وترتهن به، فمن أحسن الكسب فهو محسن، وكسْبه حسنة، وعمله صالح، ومن أساء الكسب فهو مسيء، وكسبه سيئة، وعمله سيء.

إذن فثمة خطان دلاليان، والقرآن الكريم يستخدم الألفاظ استخداما دقيقا، وكل لفظ يسير في خط دلالي، ويطرد ذلك فيه. وسأشير إلى بعض هذه الألفاظ وخطوطها الدلالية.

الإيمان وعمل الصالحات:

قال تعالى: (رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا)،

وقد جاء في أكثر من خمسين موضعا الجمع بين الإيمان وعمل الصالحات.

كما جمع بين العمل الصالح والبراءة من الشرك، إذ البراءة من الشرك إيمان، قال تعالى: (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا). **أي: فليعمل عملا صالحا وليؤمن.**

فالإيمان يحقق الشهادة، والعمل الصالح يحقق إقامة القسط.

والمؤمن من يحقق شهادة الله (بالإيمان)، والصالح من يحقق إقامة القسط (بالعمل الصالح). ولا يكون خلوص الإنسان إلا بهما (فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ)، **وقال:** (إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ). **والجنة لا يدخلها إلا الصالحون** (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ)، **أي: لنجزينهم بأن نجعلهم في الآخرة من الصالحين، فندخلهم فيهم، كما قال عن إبراهيم** (وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ).

وقال (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)، **فالكلم الطيب هو الشهادة بما شهد الله به، فهو يصعد إليه، والعمل الصالح هو إقامة القسط.**

الحسنة والسيئة:

والعمل الصالح يسميه القرآن الكريم: الحسنة، أما العمل الطالح فيسميه: السيئة، والعامل محسن أو مسيء.

قال: (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)،

وقال: (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)،

وقال: (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)،

وقال: (وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ).

وتأمل قوله (بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)، **فـ(أسلم وجهه) يشير إلى تحقيق الشهادة،**

و(محسن) يشير إلى إقامة القسط، فالمحسن من يعمل الحسنة. وقد ذكر ذلك في ثلاثة مواضع.

ولكن حين يذكر عمل الصالحات يأتي معه بقوله (وهو مؤمن)، كقوله: (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا)، **فـ(عمل الصالحات) يشير إلى إقامة القسط، و(هو مؤمن) أي: حقق الشهادة بالوحدانية. وقد ذكر ذلك في ستة مواضع.**



الهدى والتقوى:

قال تعالى: (وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ)، وقال: (أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى).

يرتبط مفهوم الهدى في القرآن الكريم بالإيمان، بينما "التقوى" يرتبط مفهومها بالعمل الصالح، فالتقوى هي الاجتهاد في أن يكون الكسب متبعا لشريعة الله، مخلصا له. وغالبا ما تعقب آيات الأعمال والأحكام والأوامر بقوله (اتقوا الله)، أي: اجتهدوا في أن يكون كسبكم وفق شريعة الله، مخلصين له أعمالكم.

كما يرتبط أيضاً مفهوم الفلاح في القرآن الكريم بـ(إقامة القسط)، فالمفلح هو من أقام الوزن بالقسط متبعا شرع الله، قاصدا وجه الله. فالفلاح هو غاية التقوى. ولذلك تجد أن الله يصف القائمين بالقسط بالمفلحين، ويأمرهم بالتقوى ليفلحوا.

كقوله: (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)،

وقوله: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي

سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)،

وقوله: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)،

وقوله: (لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)،

وقوله: (فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)،

وقوله: (وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)،

وقوله: (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ).

وتأمل قوله تعالى: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)، **ثم يورد أعمال القيام بالقسط.**

وكقوله: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)،

وقوله: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)،

وقوله: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)،

وقوله: (الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)،

وقوله: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)،

وقوله: (وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ

فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا)،

وقوله: (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)،

وقوله: (وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ)،

وقوله: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ).

كما يغلب الجمع بين الإيمان والتقوى، فالإيمان (متعلق بالشهادة)، والتقوى (متعلق بإقامة القسط) وبهما يكتمل الإسلام، كقوله:

(فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ)،

وقوله: (اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)،

وقوله: (قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)،

وقوله: (وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ)،

وقوله: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ).

فما وعد الله به المتقين في الدنيا، إنما يعني بهم من أقاموا القسط في الدنيا، فحققوه بكسبهم الحسن.

قال: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)،

وقال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا).

ولذلك أمر الله الناس بأن يتقوه قدر استطاعتهم (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)، **فالإنسان يجتهد ويتحرى في كسبه قدر استطاعته. ولكنه لم يأمر الناس بالإيمان قدر استطاعتهم. فالاستطاعة في**

القرآن الكريم ترتبط بالكسب (القيام بالقسط)، كقوله:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)،

وقوله: (إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ)،

وقوله: (فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا).

ويجمع بين الهدى والفلاح في وصف المتقين: (أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)، **فهم على هدى؛ إذ آمنوا بربهم، وهم مفلحون؛ إذ أقاموا القسط كما أمرهم الله.**

وقال تعالى: (وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ)، **(يهدون بالحق)، أي: بشهادة الوحدانية، (وبه يعدلون)، أي يقيمون القسط بالحق.**



الفلاح والخسران:

ويقابل "الفلاح": "الخسران" [وهي الخيبة]، فكما أن الفلاح مآل المتقين الذين يتبعون الشريعة ويخلصون لربهم، فكذلك الخسران هو مآل المعتدين الذين يخالفون الشريعة.

قال تعالى: (وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا)، **أي: من يخالف شريعة الله فلا يتبعها، بل يتبع الشيطان فمآله الخسران.**

وقال: (الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)، **فجمع بين الخسران وعدم الإيمان، وهذا كقوله:**

(وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ).

وقال: (قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ)،

وقال: (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا).

وقال: (إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ).

وفي قوله تعالى: (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)، **فقابل بين الفلاح والخيبة، وقال:** (وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ)، **وقال:** (لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ).



الضلال:

ويقابل الهدى: الضلال، فالضلال يرتبط بالكفر، والتكذيب بالشهادة..

قال تعالى: (فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ).

وتبين الآيات أن الهدى يقابله الضلال،

قال تعالى: (مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ)،

وقال: (وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)،

وقال: (مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)،

وقال: (مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)،

وقال: (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا)،

وقال: (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ)،

وقال: (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)،

وقال: (أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى)،

وقال: (قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ).

ويبين القرآن أن الضلال يرتبط بالكفر،

قال تعالى: (كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ)،

وقال: (الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ)،

وقال: (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ)،

وقال إبراهيم عن الأصنام:

(رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ).

وسيعترف الكافرون يوم القيامة بأنهم كانوا ضالين:

(أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ).

ويبين القرآن أن الضلال يرتبط بالتكذيب بالشهادة،

قال تعالى: (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ)،

وقال: (وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ).

الاعتداء والاستغناء:

ذكرت أن التقوى (الاجتهاد في أن يكون الكسب متبعا لشريعة الله، مخلصا له)، فهذا الاجتهاد يكون إما بالإقدام على الكسب الحسن (الفعل)، وإما بالإحجام عن الكسب السيء (الترك)، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ)،

وقال: (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى).

فالاعتداء يقابل التقوى، من حيث إنه إقدام على الكسب السيئ.

والاستغناء يقابل التقوى، من حيث إنه انصراف عن الكسب الحسن،

الاعتداء:

الاعتداء، هو إساءة الكسب، إما بعدم اتباع شريعة الله، وإما بعدم الإخلاص له.

قال تعالى: (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)،

وقال: (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ)،

وقال: (تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)،

وقال: (وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا)،

وقال: (لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ)،

وقال: (أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ) **فوصفه بالكفر (وهو يقابل الإيمان)، والاعتداء (وهو يقابل التقوى، وقد قرن بمنعه للخير).**

وقد جمع بين الأمر بالتقوى والنهي عن الاعتداء في آيات كثيرة، ومنها:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٨) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)،

وقال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٨٧) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ).

وقال: (ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥) وَلَا تُفْسِدُوا

فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ).



الاستغناء:

قال تعالى: (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)،

فقابل بين التقوى أولا مع الاستغناء ثانيا. فالمتقي يحجم عن الكسب السيء، والمستغني ينصرف عن الكسب الحسن، وينصرف عن اتباع شريعة الله، ويشعر بأنه ليس بحاجة إلى ربه ولا إلى هدي ربه، بخلاف المتقي الذي يشعر بالفقر إلى ربه وإلى هديه.



الطاعة والمعصية:

التقوى هو الاجتهاد أن يكون الكسب متبعا لشريعة الله، مخلصا لله، فالتقوى: اتباع وإخلاص. ولذلك فهي لا تكون إلا لله سبحانه وتعالى.

ويتصل بالتقوى: الطاعة والمعصية، فهما متعلقان بالاتباع، فالطائع هو المتبع لشريعة الله في كسبه، والعاصي هو المخالف لشريعة الله في كسبه. والطاعة والمعصية قد يكونان لله، وقد يكونان لغيره، كالرسل، فهم كانوا يدعون قومهم إلى طاعتهم.

قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ)، **فأمره بأن يتبع الله ويخلص دينه لله، وألا يتبع الكافرين والمنافقين.**

وقال: (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا)، **فطاعة الرسول وهو المبلغ عن الله هي طاعة لله**، (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ)، **وكانت الرسل تقول:** (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ)، **وقال نوح عليه السلام:** (أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ)، **فالعبادة هي الإيمان بالله والخضوع له، والتقوى هو اتباع شريعته والإخلاص له، والطاعة هي اتباع ما جاء به النبي عن ربه.**

وقال تعالى: (فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ)، **أي اتبعوه وخالفوا رسول الله، وذلك لأنهم قوم فاسقون، أي غير مؤمنين بالله، ولو آمنوا لأطاعوا رسول الله.**

قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ)،

وقال: (إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ (٢٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ).

وكذلك المعصية، تقابل الطاعة، فهي مخالفة الاتباع، قال إبراهيم عليه السلام: (رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)، **وقال:** (فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا)، **وقال:** (فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصَى)، **فالتكذيب عدم الإيمان، والعصيان عدم الاتباع، وقال نوح عليه السلام:** (قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا). **وقال تعالى في وصف خزنة جهنم:** (عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ).

وقال: (وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ)، **أي: كره الكفر**

بالله، والفسوق وهو الكفر عن علم وإيمان، والعصيان وهو عدم اتباع شريعة الله سبحانه وتعالى.



الصلاح والفساد:

كما أن الصلاح يرتبط بإقامة القسط، مثله مثل العمل الصالح، ويقابله الفساد والإفساد،

قال تعالى: (وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ)،

وقال: (وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا)،

وقال: (وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)،

وقال: (فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ)،

وقال: (وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ)،

وقال: (وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ)،

وقال: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ).

وقوله: (وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)، **فعطف الإصلاح على الإيمان.**



الفسق:

كذلك الفسق، والفسق هو الشهادة بالباطل، فكل شهادة بالباطل فهي فسوق. كما بينته سابقا. وأشنع ذلك الفسوق إذا كانت الشهادة بالباطل في حق الله سبحانه وتعالى.

فالشهادة بالحق أن الله إله واحد، فمن شهد بذلك فهو مؤمن،

والشهادة بالباطل أن تشهد أن لله شريكا، فمن شهد بذلك كان فاسقا. ولذلك فهو يقابل الإيمان. قال تعالى: (أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ).

ويطلق لفظ الفسق في القرآن الكريم غالبا على من يعرف الإله الواحد، ولكنه يختار طريق الكفر، فهي شهادة بالباطل بعد علم، كإبليس: (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ)، **فهو كفر بالله، بالرغم من أنه يعلم أنه إله واحد. وحين يعصي ربه ويرفض أمره فهو يشهد بالباطل؛ إذ يزعم أن ربه لا يستحق الطاعة فيما أمره به.**

وأهل الكتاب: (وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ)، **أي: وأكثرهم غير مؤمنين،** (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)، (وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)، (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ). **فهم كفروا عن علم، قال تعالى:** (وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ).

وكذلك أقوام الرسل، فهم قد أيقنوا أنه ما من إله إلا إله واحد، ولكنهم جحدوا واستكبروا (إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)، **وقال:** (وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ)، **فهي آيات قد تبينت لهم، فكفرهم بها فسق.** (كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ).

والمنافقون: (قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ

قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٣) وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ)، **ففسر الفسق بالكفر.** (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٧) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ)، **وقال** (وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ)...

وقوله تعالى: (قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ) **يفسره قوله تعالى:** (وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ)، **فالفسق الذي أُهِلّ لغير الله هو المذبوح الذي لم يذكر اسم الله عليه. وسماه فسقا؛ لأنه نسكٌ لغير الله. فالناسك إذا أَهَلّ بنسكه لله فقد شهد بأن هذا النسك لا يستحقه إلا الله، فهو المعبود الواحد، وهذه شهادة حق، وإن أَهَلّ بنسكه لغير الله فقد شهد بأن لله شريكا يستحق تقديم النسك إليه، فهذه شهادة بالباطل.**

وقال تعالى: (وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ)، **أي: كره الكفر بالله، والفسوق وهو الكفر عن علم، كما قال:** (بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ).

والفسق كما قلت هو الشهادة بالباطل، فمن شهد بالباطل ولو كان مؤمنا فهو فاسق. كما بينته سابقا.

قال تعالى: (قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ)،

وقال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)،

وقال: (وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ)،

وقال: (الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ).



الاهتداء:

والمقابل الدلالي للفسق، كما ذكرت سابقا، هو: العدْل، فمن شهد بالحق فهو عدل. والله يسمي من شهد بالعدل في حقه: مهتدين، فالفاسقون هم الشهداء بالباطل، والمهتدون هم الشهداء بالحق. فالاهتداء يقابل الفسق، وأما الهدى فيقابل الضلال.

ذلك أن الفاسق يقع في فسقه عن علم، ولكنه يضل الطريق فلا يصل إلى الله، بل ينصرف عنه، أما المهتدي فإنه يعلم، ويهتدي بعلمه إلى ربه، فيشهد بما علم. قال تعالى: (يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ)، **وقال:** (وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) **فأثبت لهم الضلال ونفى عنهم الهداية. وقال تعالى:** (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)، **فبين أن أهل الكتاب الذين قد جاءهم العلم والهدى قسمان، قسم اهتدى بذلك (فمنهم مهتد)، وقسم لم يهتد بذلك الهدى (فاسقون).**

وقال تعالى: (وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)، **أي كيف لا تهتدون وقد بين الله لكم آياته؟!**

وقال: (قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي)،

وقال: (كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)،

وقال: (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا).

وقال تعالى: (وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ)، **فهم اهتدوا وقد علموا الحق، فالله زادهم هدى. وقال تعالى:** (مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)، **فالمهتدي هو من هداه الله، وأما من أضله الله فهو الفاسق الذي خسر نفسه.** (وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ).



الشكر:

و"الشكر" يرتبط بالإيمان، فالشكر هو الاعتراف بنعمة الله، وعبادته. وهو اعتراف لا يكون إلا بعلم.

فلفظ "الشكر" يرتبط بالإيمان والعبادة،

قال تعالى: (إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا)،

وقال: (بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)،

وقال: (وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ)،

وقال: (مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا).

كما أنه يقابل لفظ الشكر بلفظ الكفر، فالشكر إقرار واعتراف بنعم الإله الواحد، والكفر جحود وإنكار للإله الواحد وفضله.

قال تعالى: (فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ)،

وقال: (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ)، (وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ

حَمِيدٌ)،

وقال: (إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ)،

وقال: (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا).

وغاية إبليس في الأرض أن يحول بين الناس والشكر (فيصرفهم عن الإيمان إلى الكفر)، (ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ)، **أي: مؤمنين بك معترفين بفضلك.**

وشكر الله يكون عن علم بآلائه ونعمه، فأنت تعلم نعمة المنعم عليك، ثم تعترف بها، تشكره عالما به وبفضله، لا جاهلا. ولذلك غالبا ما يعقب آيات النعم والفضل.

قال: (وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)،

وقال: (إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ)،

وقال: (وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)،

وقال: (وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ)،

وقال: (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)،

وقال: (كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ)...

ويطرد وصف الله بأنه شاكر عليم،

قال تعالى: (وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ)،

وقال: (وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا).

وقد قرن بين (الشكر) و(العمل الصالح)، فالشكر إيمان، قال تعالى: (وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ

أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ).

❖ ❖

الجحود:

والجحود هو اللفظ المقابل للشكر، فالجحود هو عدم الاعتراف بنعم الله، وآياته، وإنكارها.

قال تعالى: (أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ)،

وقال: (وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ)،

وقال: (وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ)،

وقال: (وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ)،

وقال: (وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ).



العبادة والشرك:

كما أن لفظ (العبادة) يرتبط بالدلالة على الخضوع للإله الواحد. (العبادة المحضة)، وسأتحدث عن هذا لاحقا.

ويقابل عبادة الإله الواحد: عبادة غير الله، وهو الطاغوت، والطاغوت كل ما عبد من دون الله:

قال تعالى: (وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ)،

وقال: (اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ)،

وقال: (يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ)،

وقال: (قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا)،

وقال: (قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا)،

وقال: (فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ)،

وقال: (قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ).

ويسميه القرآن الكريم: الشرك،

قال: (قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ)،

وقال: (قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ)،

وقال: (يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا)،

وقال: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ).



الإخلاص والرياء:

و"الإخلاص" يأتي للدلالة على إخلاص العبادة لله الواحد، فالعبادة المحضة تكون كذلك بالإخلاص، والعبادة غير المحضة تكون عبادة بالإخلاص، وإلا فهي عمل من الأعمال. فالإخلاص هو المعيار الذي يحول العمل إلى عبادة، ويجعل من التقرب عبادة.

قال تعالى: (فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ)،

وقال: (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ)،

وقال: (وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ)،

وقال: (وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ).

ويقابل الإخلاص: الرياء، فالإخلاص هو نية العمل لله، أما الرياء فنية العمل لغير الله

قال: (وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا)،

وقال: (وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ).

❖ ❖

التصديق والتكذيب:

والتصديق يقابله التكذيب،

قال تعالى: (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى).

وقال: (فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى (٣١) وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى)، **أي: فلا صدق بآيات ربه ومن ثم فهو لم يعبده، ولكنه كذب بربه وتولى عنه.**

والصِّدِّيق هو من صدّق بربه وآياته، دون أن يخالجه ريب، وصدّقت أفعالُه اعتقادَه، فهو يؤمن بالغيب كأنه يراه، ومن ثم فلا يقصر في حسنة ولا يتهاون في سيئة،

قال تعالى: (وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ)،

وقال: (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا)،

وقال: (مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ)،

وقوله: (وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ)، **فهي صدقت وكانت من القانتين، وهو مقتضى التصديق.**

والصادق هو المؤمن الذي صدَق في شهادته أن ربه إله واحد لا شريك له. قال تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ)، **فجمع بين الإيمان الجازم والعمل. فهؤلاء هم الصادقون، وهم المراد بقوله:** (قَالَ

اللّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ)، **وقوله** (أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) **فعطف بين الصدق والتقوى.**

وقال تعالى: (لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا)، **فجمع بين (الصادقين)، وهم من صدَقوا في شهادتهم بألا إله إلا هو)، و(الكافرين) وهم من كفروا بتلك الشهادة.**



الامتراء واليقين:

كذلك "الامتراء" ويقابله "اليقين"، وكلاهما يرتبطان بالمجموعة الدلالية الأولى (الشهادة)، فاليقين هو التصديق الجازم بالغيب دون ريب (بالله وبوعده)، والامتراء هو الشك المريب في ذلك.

قال تعالى: (فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ)،

وقال: (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ)،

وقال: (إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ).

وقال: (يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ)،

وقال: (قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ)،

وقال: (ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ)،

وقال: (إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا).

وقال: (وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ)،

وقال: (فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ).

وقال تعالى: (وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)، **أي: يأتيك ما وعدك**

الله به يقينا، وهو القيامة، فمن مات قامت قيامته. كقوله: (وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ)، **فهم أيقنوا بعد أن رأوا، ولذلك يقولون:** (فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ). **ولكن الله يذكرهم بشكهم وريبهم في الدنيا:**

(وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ (٣١) وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ).

والله سبحانه وتعالى قد بين آياته وفصلها، لتكون طريقا لليقين، كما قال:

(يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ)،

وقال: (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)،

وقال: (هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ)،

وقال: (آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ)



الاستقامة والزيغ:

و"الاستقامة" كما بينت آنفا، هي: قيام النفس على الميزان الذي أقامها الله عليه. فإذا قامت النفس على ما أقامها الله عليه فقد استقامت. قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)، **فجمع بين أمرين: وحدانية الله، والاستقامة (وهي إقامة القسط).**

ويقابل الاستقامة: "الزيغ"، فالزيغ هو انحراف النفس عن الميزان الذي أقامها الله عليه، ويرتبط لفظ الزيغ في القرآن الكريم

غالبا بـ"القلوب".

قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)،

وقال: (فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ)،

وقال: (رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا)،

وقال: (لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ).

وقد لا يرتبط كما في قوله: (وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ).



خلاصة الدلالات:

المجموعة الدلالية للشهادة:

فالخلاصة أن المجموعة الدلالية للشهادة ترتبط بها ألفاظ:

الإيمان، والشكر، والعبادة، والهدى، والتصديق، والإخلاص، والاهتداء، واليقين.

ويقابله:

الكفر والجحود، والشرك، والضلال، والتكذيب، والرياء، والفسق، والامتراء.

كما في الجدول:

م	+	−
١.	**الإيمان**	**الكفر**
٢.	**الشكر**	**الجحود**
٣.	**عبادة (إله واحد)**	**الشرك [عبادة غير الله]**
٤.	**الهدى**	**الضلال**
٥.	**الإخلاص**	**الرياء**
٦.	**التصديق**	**التكذيب**
٧.	**الاهتداء**	**الفسق**
٨.	**اليقين**	**الامتراء**

□

المجموعة الدلالية لإقامة القسط:

والمجموعة الدلالية لإقامة القسط، ترتبط بها ألفاظ:

العمل الصالح، ومشتقات الصلاح، والإحسان، والحسنة، والتقوى، والفلاح، والطاعة، والاستقامة.

ويقابله:

العمل السيء، والسيئة، ومشتقات الفساد، والاعتداء، والاستغناء، والخسران، والمعصية، والزيغ. كما في الجدول:

م	+	–
١.	**العمل الصالح**	**العمل السيئ**
٢.	**الحسنة**	**السيئة**
٣.	**الصلاح**	**الفساد**
٤.	**التقوى**	**الاعتداء**
٥.	**التقوى**	**الاستغناء**
٦.	**الفلاح**	**الخسران**
٧.	**الطاعة**	**المعصية**
٨.	**الاستقامة**	**الزيغ**

□

الإسلام والإجرام:

أما الإسلام فهو يشمل المجموعتين الدلاليتين معا: الإيمان والعمل الصالح. ويقابله الإجرام. فالمسلم من آمن بالله وعمل الصالحات، والمجرم من كفر بالله وعمل السيئات.

قال تعالى: (إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ)،

فهم مجرمون جمعوا بين التكذيب بالله، وعمل السيئات.

وقال تعالى: (إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا (٧٤) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَا)،

فقوله (مؤمنا قد عمل الصالحات)، هو المسلم فقابله مع المجرم، كقوله:

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ)،

وقال: (وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ)،

وقال: (هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ).

وقال: (إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ).

□

(ب) العبادة المحضة وغير المحضة:

(ب -١) المفهوم:

تحقق الشهادةَ بوحدانية اللّه، كلُّ أعمال الإنسان التي تتعلق بعالم الغيب، فاللّه غيب، والإيمان به إلها واحدا، وذكره، وتسبيحه، واستغفاره، ودعاؤه، والصلاة له، وتقديم النسك له، والصيام له، والتوجه إليه، والإخلاص له، والتوكل عليه، والفقر إليه، ورجاء لقائه، والطمع في ثوابه، والخوف من عقابه ... كل هذه الأعمال عبادة محضة، يتقرب بها الإنسان إلى ربه، طاعة له، ويرجو ثوابها منه يوم يلقاه.

وأما إقامة القسط فهي سائر الأعمال التي يعملها مما تتعلق بعالم الشهادة الذي يدركه، ويدرك آثار أعماله في الحياة. كالحكم بالعدل، ورحمة الضعيف، ورحمة الأم لولدها، وبذل الصدقة، ورعاية من يعول، والكرم، وصلة الرحم، ونصرة المظلوم، وإغاثة الملهوف، ومساعدة المحتاج، والكرم، وحسن الخلق، وإصلاح الأرض، والحفاظ على البيئة، والإتقان في العمل، والتعلم والتعليم، واكتساب القوة، ومحاربة الفساد، والفقر، والبطالة، ... الخ. فإن كان العمل موافقا لميزان النفس فهو عمل صالح، وإن كان مخالفا لها فهو عمل فاسد. ثم إن العمل إن نوى به العامل الحصول على أجره من (الغيب) فهو عمل وعبادة، وإن لم ينو به فهو عمل وقيمته في الدنيا فقط.

فالعبادة المحضة هي كل عمل يعمله الإنسان له تعلق بالغيب. فإن كان هذا العمل للّه فهو عبادة للّه، وإن كان لغيره فهو عبادة لمن

يتوجه إليه العابد.

والعبادة غير المحضة، هي كل عمل يعمله الإنسان مما يتعلق بعالم الشهادة، وهي الأعمال التي منفعتها ظاهرة في الدنيا، وتكون عبادة حين ينوي العامل ذلك. فبر الوالدين مثلا، هو نوع من الجزاء لهم، ويحقق ترابط الأسرة، وفي الوقت نفسه هو طاعة لله وطلب لمرضاته. والأخذ بأسباب القوة يمنح المجتمع قوة وكرامة، ويحفظه من الاعتداء الخارجي. والصناعة والتعليم ... يؤدي إلى ازدهار الدولة وتقدمها. والحكم بالعدل يحفظ روابط المجتمع، ويحافظ على أمنه وكرامته. وكذلك القول في اجتناب المحظورات الاجتماعية، كالظلم، والزنا، والقتل، والفساد... الخ. فهذه أعمال (فعلها أو تركها) منافعها ظاهرة في الدنيا. فحين يتعبد الإنسان ربه بها، فإنها عبادة غير محضة، بمعنى أن آثارها لا تقتصر على الغيب، كالعبادة المحضة.

□

(ب -٢) الإسلام نوعان من العبادة:

الإسلام - إذن - نوعان من العبادة،

الأول: العبادة المحضة، ويشتمل على الشهادة بوحدانية الله، والتصديق ببيناتها، والإيمان بالله، وذكره، والتقرب إليه بالعبادات والنسك. والحذر من الكفر به، أو الشرك به، أو الاستعانة بغيره. (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ).

الثاني: العبادة غير المحضة، وهي تشمل ما ذكرته في (إقامة القسط)، فتدخل فيها سائر أحكام الأخلاق والمعاملات بين الناس.

كما تشتمل العبادة غير المحضة على أعمال الإنسان اللازمة لجسده، كالأكل والشرب والنوم والنكاح، فقد جعلها الله من كسب الإنسان. فالإنسان سيعملها لا محالة، ولكنها تكون عبادة إذا اتبع فيها الشرع، ونوى بها لربه، ولذلك كان التوجيه الإلهي للإنسان بتحري الحلال الطيب في مأكله ومشربه، وفي الحديث الصحيح الذي رواه مسلم، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: («وفي بضع أحدكم صدقة»، قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر»). وهذا ما فقهه الصحابة فقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: (إني لأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي).

والإنسان يستحضر نية العبادة في كل عمل يعمله، حتى يحوله من عمل محض إلى عبادة وعمل. والمؤمن الذي يقصد بأعماله وجه

الله سبحانه وتعالى، بحاجة إلى نيتين، نية عامة ونية خاصة، فالنية العامة كالبوصلة التي توجه سائر أعماله التي يعملها، فهو ينوي بها وجه الله في هذه الأرض، ويسعى إلى طلب رضوانه، ويستشعر أنه عامل في سبيل الله في كل ما يقوم به. هذه النية العامة توجه أعماله كافة. والنية الخاصة أن ينوي مع كل عمل يعمله رضا ربه. والنية العامة لا تغني عن النية الخاصة، ولكنها نافعة للمؤمن؛ فهي كالقالب الذي يُصمَّم ابتداء، ثم توضع الأشياء فيه، فتكون ملاءمة له، وكذلك الأعمال التي يعملها المؤمن ممن أسس (نيته العامة)، فكل عمل يعمله يوضع في ذلك القالب، فيجمع الله له بين العمل والعبادة.

وأسأل الله أن ييسر لي فأعيد قراءة الإسلام في ضوء هذا التقسيم: الشهادة بالله (عبادة محضة)، وإقامة القسط (عبادة غير محضة)، وهو التقسيم المستنبط من القرآن الكريم، وليس بدعا من القول.



□

(ب -٣) ارتباط النوعين بعالم الغيب والشهادة:

ومن ثم فالعبادات المحضة، لا ينبغي ربطها بمنافعها في عالم الشهادة، بل تكون خالصة العبودية لله سبحانه وتعالى. فنحن لا نصوم؛ لأن الصوم صحة، ولا نصلي؛ لأن الصلاة رياضة... الخ، ولكننا نفعل هذه العبادات خالصة لله سبحانه وتعالى، فهي لذكره سبحانه: (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي). **وآثارها يحققها الله سبحانه وتعالى لنا متى شاء. وهذه العبادة تساعد النفس على أن تتزكى وتستقيم** (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ).

أما العبادات غير المحضة، كالبر والصدقة والعدل ونصرة المظلوم... فهي ترتبط بمنافعها وآثارها في الدنيا، والقرآن الكريم يربطها كذلك، كقوله: (وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ). **ولكن قاعدتها الأساس ورباطها الأول كونها رضا لله سبحانه وتعالى. وهذه العبادات غير المحضة ترتبط بمصالح شرعية تجلبها، وتدرأ المفاسد، فهي جاءت بالمصلحة من حكمة ورحمة وعلم وهدى. وهي مجال رحب ومرن لاجتهاد المجتهدين، وفق ضوابط الاجتهاد.**

والإنسان المسلم أمامه مهمتان، الأولى: الاجتهاد في تحويل (أعمال إقامة القسط) إلى عبادة، وهذه هي التقوى، أن يتبع دين ربه، وأن يخلص لربه عمله. والمهمة الثانية: الحذر من تحويل العبادة المحضة إلى عمل محض، وذلك حين يؤدي العبادة كطقوس جوفاء، خالية من مشاعر التقرب والإخلاص لله، فتصبح مجرد أعمال وعادات، يفعلها كما يفعل أكله وشربه.

فكون العمل عبودية يرتبط بنية العامل وقصده وتوجهه أولاً وقبل كل شيء، ومن هنا كان الحث الكبير على الإخلاص وعلى النية: (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى).



□

(ب -٤) كسب الإنسان:

وكسب الإنسان في دنياه، يشتمل على ما يقوم به من: عبادة محضة [سواء أكانت لله أو لغيره]، وعمل [سواء أكان عملا صالحا أو فاسدا].

وكل كسب، يتألف من وجهين: الجسد، والروح.

وأقصد بـ (جسد الكسب) شكله وهيئته الظاهرة، وأقصد بـ(الروح) مقصده الذي يرتبط به.

فالعبادة المحضة كالصلاة والصيام والحج... الخ، هي كسب، جسدها: هيئتها، فالصلاة هيئتها: ركوعها وسجودها وقيامها والذكر الذي فيها، وإقامتها موافقة لشروطها... وكذلك الصيام والحج... الخ. وأما روحها، فهي إخلاصها لله سبحانه وتعالى، وأداؤها بخشوع وإقبال على المعبود، دون انصراف عنه. فإذا تحقق لها هذان فهي عبادة، وإن تحقق لها الجسد فقط فهي مجرد عمل.

وكذلك العمل الصالح، فمثلاً، إماطة الأذى عن الطريق كسب، وجسد هذا العمل هو هيئته، ويشترك في هذا الكسب الناس جميعا. أما روحه فهو الدافع الذي يدفع صاحبه لما عمل، فقد يكون دافعه النظافة، وقد يكون حب الشهرة، وقد يكون التميز، وقد يكون ترك انطباع جيد... الخ. فيظل عملا صالحا بالنظر إلى ظاهره، وصلاحه من حيث تحقيق منفعته في الدنيا.

فإذا كان هذا العمل دافعه رضوان الله، وفَعَلَه صاحبُه مخلصا لله، فإنه يصبح عبادة (مع كونه عملا صالحا)، ولكن لا يطلق عليه

أنه عبادة، بل يسمى: عملا صالحا، والقرآن الكريم يسميه: "عمل صالح". وكونه عبادة إنما هو بالنظر إلى مقصده (روحه)، وهو مراعاة الغيب. مع التأكيد أن (جسد) العمل لا بد أن تكون هيئته غير مخالفة لما أمر الله سبحانه وتعالى، (وهذا هو الاتباع)، فإذا كانت مخالفة فإنه لا يسمى عملا صالحا، فما خالف أمر الله لن يكون فيه صلاح.

والإسلام جاء فوضع لنا أطرا عامة، تبين لنا قوالب الأعمال الصالحة، وأسسها، وضوابطها، وموجهاتها (المأمورات والمنهيات)، وترك للناس مجالا واسعا في إقامتها، وفي تفصيل تفاصيلها، وفي الوصول إلى أحسنها، والاجتهاد في كسب أقومها. فمثلا نجد أن القرآن الكريم يبين دائرة الترك (كالمحظورات والمحرمات) ويسميها، ويحذر الناس منها، وأما دائرة الفعل فلا يحصرها، بل يضرب أمثلة عليها، ويرشد الناس إليها. ومن ثم فأي عمل يحقق صفة الصلاح فهو عمل صالح سماه القرآن الكريم أو لم يسمه، وهو امتثال لأمر الله، واتباع لشريعته.



□

(ب -٥) لفظ العبادة في القرآن ومفهومه:

والقرآن الكريم حيثما أطلق لفظ (العبادة)، فإنه يعني بها (العبادة المحضة)، أي الخضوع المطلق للإله الواحد والإيمان به وإظهار علامات ذلك الخضوع.

ولذلك يقترن الأمر بالعبادة بالإله الواحد، الذي لا شريك له، تأمل قوله:

(قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا)،

وقال: (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا)،

وقال: (وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ)،

وقال: (ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ)،

وقال: (يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)،

وقال: (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)،

وقال: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ).

كما عطف فعل الخير (عبادة غير محضة) على العبادة (عبادة محضة)، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)، **وكقوله:** (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)، **فالإحسان بالوالدين من إقامة القسط. وكذلك عطف الأمر بالتقوى على الأمر بالعبادة، والتقوى كما بينت متعلقة بإقامة القسط، قال تعالى:** (وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ)، (أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ).

وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١٧٢) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ)، **فالعبادة هنا كمعناها السابق: الخضوع التام لله، واتباعه في ما أحل وما حرم. فالتحليل والتحريم والأمر والنهي من خواصّ الإله الواحد سبحانه وتعالى، والشرك أن تجعل معه شريكا يحل ويحرم. ومن ثم فإقامة القسط لا يكون عبادة إلا باتباع شريعة الله، قال تعالى:** (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ).

وقد سمى اتباع الشيطان عبادة،

قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ)،
وقال: (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ).

فالعبادة هي علامة الخضوع والطاعة، قال تعالى: (إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا)، **أي خاضعا له طائعا مسلما له طوعا أو كرها.** (فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ)، **أي: خاضعون طائعون.**

فعبادة الله علامة لاتباعه والخضوع له. اللهم اجعلنا من عبادك الصالحين.

□

(ب -٦) إقام الصلاة وإيتاء الزكاة:

وكذلك التزكية، فتزكية النفس: تقويمها على ميزان النفس، لأن قِوامها لا يكون إلا به. فمن قوّمها استقامت وكان مفلحا، ومن دسّاها ضلت وكان خائبا.

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)،

وقال: (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى).

فالمتزكي هو من زكى نفسه. وتأمل أن لفظ (أزكى) يأتي مع توجيهات القيام بالقسط، كآداب الاستئذان، والتعامل مع المطلقات، وغضّ البصر وحفظ الفرج.

وقوله تعالى: (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)، **فهو يزكيهم، بما نزل معه من ميزان، تستقيم النفس حين تتقوم عليه، فيكون قِوامها.**

وقال تعالى: (الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى)، **فهو ينفق ماله ليزكي نفسه، وتزكية النفس بتقويمها على ميزان النفس، فتقوم بالقسط كما يريد الله سبحانه وتعالى. والمتأمل في أركان الإسلام يجد أن أربعة منها عبادة محضة، وواحد منها هو قيام بالقسط، وهو: الزكاة. وقد سميت الزكاة؛ لأنها تزكي النفوس** (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا). **وكونها زكاة فإنها عبادة؛ إذ لا تسمى زكاة إلا إذا روعي فيها التعبد لله، أما لو كانت مجرد صدقة أو نفقة دون مراعاة التعبد بها لما كانت زكاة.**

ولذلك غالبا ما يقترن إقامة الصلاة بإيتاء الزكاة، فإقامة

الصلاة هي العبادة التي تتحقق بها شهادة الوحدانية، وإيتاء الزكاة هي العمل الذي يتحقق به إقامة القسط. (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ).

ولذلك عندما ذكر الزكاة دون الصلاة، عطف عليها وصفهم بالإيمان، (فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ).

□

(ب -٧) القيام بالقسط واجب لذاته:

وإقامة القسط أوجبه الله لذاته، بغض النظر عمن يتعلق به، فنصرة المظلوم واجبة، أيا كان المظلوم، مسلما أو كافرا، والحكم بالعدل واجب ولو على مسلم لكافر، وإغاثة الملهوف واجب، ومساعدة المحتاج واجب ... وهكذا سائر أعمال القسط.

قال تعالى: (وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا)،

وقال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)،

وقال: (وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ)،

وقال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا)،

وقال: (لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)...

والآيات والأحاديث في هذا كثيرة.

فهذه الأعمال هي قيام بالقسط، وقد يعملها المسلم وغير المسلم. فهي أعمال صالحة بذاتها، ويجد الإنسان أجرها في الآثار التي تحققها في الدنيا.

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا

فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

فالله لا يبخس نفسا شيئا، وستأخذ أجرها وافيا في الدنيا التي عملت لها.

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (١٩) كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا).



□

(ب -٨) كيف تصير إقامة القسط عبادة:

غير أن المسلم إنْ عمل تلك الأعمال (إقامة القسط)، وهو يراعي فيها الغيب، فهي عبادة، [ومن هذه الزاوية يكون تعلقها بعالم الغيب]، والله يجازيه عليها. وإن عملها دون مراعاة الغيب، فهو عمل صالح، يحقق الصلاح في نفسه وفي الأرض، ولكن جزاءه مرتهن بنيته (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى).

قال تعالى: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)، قال ابن كثير في تفسيرها: (أي: يا من ليس همه إلا الدنيا، اعلم أن عند الله ثواب الدنيا والآخرة، وإذا سألته من هذه وهذه أعطاك وأغناك وأقناك... فبيده هذا وهذا، فلا يقتصرن قاصر الهمة على السعي للدنيا فقط، بل لتكن همته سامية إلى نيل المطالب العالية في الدنيا والآخرة، فإن مرجع ذلك كله إلى الذي بيده الضر والنفع).

وقال أبو السعود: ("من كان يريد ثواب الدنيا" كالمجاهد يريد بجهاده الغنيمة، "فعند الله ثواب الدنيا والآخرة" أي فعنده تعالى ثوابهما له إن أراده، فما له يطلب أخسهما! فليطلبهما كمن يقول "ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة"، أو ليطلب أشرفهما؛ فإن من جاهد خالصا لوجه الله تعالى لم تخطئه الغنيمة وله في الآخرة ما هي في جنبه كلا شيء، أي فعند الله ثواب الدارين فيعطي كلا ما يريده).

ولذلك فالعامل إن عملها لله يؤتيه أجره في الدنيا وفي الآخرة يثيبه عليها. أما من لم يعملها لله، فإن الله يؤتيه أجره في الدنيا،

وأجره هو تحقيق دافعه الذي دفعه إلى العمل، من مال أو شهرة، أو مجد، أو رقي وازدهار وتقدم، أو فوز بمنصب، أو (إنسانية)، أو (وطنية)... الخ. وحين يلقاه الله في الآخرة فإنه لا يقيم له وزنا (وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا)، فهو لا يغني عنه شيئا؛ لأن كسبه لم يكن لله، فكيف يعطيه الله شيئا لم يكن يرجوه.

قال تعالى: (إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ)، **فهو يتحدث عن الأمرين: الإيمان والقيام بالقسط، فهو لم يكن مؤمنا، وهو لم يقم القسط (لا يحض على طعام المسكين)، فلا عبرة بالعمل في ذلك اليوم ما لم يكن لله؛ لأن ذلك اليوم هو من عالم الغيب، وطلب رضا الله من عالم الغيب، فلا وزن فيه إلا لعامل كان يؤمن بهذا الغيب. أما من حض على طعام المسكين في الدنيا (ولم يكن لله)، فقد نال أجره فيها، وانتهى عمله، فيأتي يوم القيامة وميزانه خفيف؛ إذ لا كسب فيه، ويزيده خفة ما يعمل من سيئة.**

ومثله قول أهل سقر: (قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ). **فهم بينوا أنهم كانوا يكذبون بيوم الدين، ومن ثم فما علموه في الدنيا كانت قيمته في الدنيا، ولا قيمة له في ذلك اليوم الذي كذبوا به. وكقوله**: (أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ).

قال تعالى: (قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا

بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا). **فهم عملوا في الدنيا، وسعوا فيها، ولكن سعيهم ضل فيها، ومن ثم تحبط أعمالهم في الآخرة فلا وزن لها.**

قال تعالى: (وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ)، **فالإيمان بالله وبلقائه في اليوم الآخر، هو أساس لقبول العمل، وذهابه يعني حبوط العمل، ومن ثم فصاحبه من الخاسرين.**

قال: (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)،

وقال: (أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ).

قال الله عن أنبيائه (وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)، **وقال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم:** (وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ).



□

(ب -٩) إخلاص الدين لله:

وهذا قوله تعالى:

(وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ)،

وقال: (فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (٢) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ).

فإخلاص الدين لله هو عبادته، وذلك يشمل الإيمان والعمل الصالح. فمن عمل عملا لم يخلصه لربه، فهو لم يعمل العمل لله، ولا قيمة لكسبه حين يلقاه.

والله سبحانه وتعالى قد حذر أنبياءه من محبطات الأعمال (وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ)،

وحذر المؤمنين منها:

قال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ)،

وقال: (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا)،

وقال: (أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ).

والرسول صلى الله عليه وسلم كان يعلم أصحابه أهمية النية في كل عمل يعملونه، حتى لا يذهب هباء منثورا، ويحذرهم من محبطات الأعمال، وكذلك كان السلف الأول، قال سفيان الثوري: (كانوا يتعلمون النية كما تتعلمون العمل).

وفي الحديث الذي أخرجه أحمد وصححه الألباني وغيره: (إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا: وما الشرك الأصغر؟ قال: الرياء، يقول الله عز وجل لأصحاب ذلك يوم القيامة إذا جازى الناس: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء؟!).

❖ ❖



(ب -١٠) الجهاد (القتال) عبادة غير محضة:

قال تعالى: (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ).

تتحدث الآيات عن أن تمكن المشركين من إخراج المسلمين من أرضهم يعني أنهم حققوا الفتنة، ومن ثم فأمرهم بقتالهم، ولو قتلوا في سبيل ذلك؛ لأن الفتنة أشد وأكبر من القتل، وبين لهم أن القتال يمنع من تحقق هذه الفتنة. فالفتنة إذن شيء أشد من القتل، والقتال واجب حتى يحول دون تحققها. والفتنة المرادة في الآيات: تمكن المشركين واستضعافهم للمسلمين، وطردهم من أرضهم، والحيلولة دون تمكنهم من عبادة الله وإقامة دينه في الأرض. فالفتنة صادرة من أصحاب السلطة الذين يحولون بين الناس وبين إقامة دين الله في حياتهم، واستخدام وسائل القهر لمنعهم من ذلك. وفي هذه الحالة يجب على المؤمنين قتالهم ومقاومتهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله.

لقد شرع القتال في الإسلام ليس لقتال الكافرين، ولكن لقتال من يقفون عقبة يحولون دون أن يتحقق اختيار الناس لدينهم. ولذلك فالإسلام يقبل أهل الملل الأخرى، ولا يقاتلهم، بل ويحميهم من أي عدوان. ولكنه يقاتل من أراد فتنة الناس، فهو يقاتل المستبدين الظالمين (فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ).

إذن فالجهاد في الإسلام لا يتعلق بالإيمان، ولكنه يتعلق بإقامة القسط في الحياة، فهو عبادة غير محضة؛ هدفها إرساء الأمن في الأرض، والقضاء على الظلم والاستبداد، وتحقيق مبدأ الاختيار للناس جميعا.

كما أن القرآن الكريم دائما ما يقرن الجهاد بالنفس مع الجهاد بالمال. فالجهاد لا يقتصر على جهاد النفس فقط. بل إن جهاد النفس لا يقتصر على القتال، فسائر أعمال إقامة القسط إذا كانت لمرضاة الله يعدها القرآن الكريم جهادا، قال تعالى: (إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي)، **فجعل هجرتهم جهادا.**

أما الإيمان والدعوة إليه فقد جعل الله الجهاد في سبيله بالحجة والبينة (وهو جهاد العلم والدعوة)، وليس بالقتال، قال تعالى: (فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا).

❖❖

□

(ج) العلم والهدى لا الظن والهوى:

دعا الله الناس إلى الشهادة بوحدانيته، وإلى القيام بالقسط. وقد كانت دعوته لهم قائمة على العلم البين، والبصيرة الهادية، والحجة البالغة، والآيات البينة، والحق الواضح

قال: (هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ)،

وقال: (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي)،

وقال: (لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ)،

وقال: (نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)،

وقال: (قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)،

وقال: (قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ).

وقد رفض القرآن الكريم أن يكون دين الناس قائما على ظنون وأهواء.

فالظن يقابله العلم:

قال: (وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ)،

وقال: (وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا)،

وقال: (إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ)،

وقال: (وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا)،

وقال: (وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ).

والهدى يقابله الهوى. فالإنسان إما يقيم دينه على علم وهدى أو ظن وهوى. قال تعالى:

(إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى).

والهوى طريق الضلال، وهو خلاف الهدى الذي طريقه اتباع الحق

قال: (فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)،

وقال: (قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ)،

وقال: (فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ).

والإنسان قد يتبع الهوى دون أن يتبين له الحق، فيجمع بين الظن والهوى،

قال تعالى: (إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ)،

وقال: (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)،

وقال: (بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ)،

وقال: (ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)،

وقال: (قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ).

وقد يتبع الهوى بعد أن يتبين له الحق، ويأتيه العلم. ومن ثم انتفى الظن في حقه، ولكنه خالف ما علم واتبع هواه،

قال تعالى: (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ)،

وقال: (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)،

وقال: (وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ

الظَّالِمِينَ)،

وقال: (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ).

والظن يدفع الإنسان إلى إنكار البينات والتكذيب بها وعدم الإيمان بالغيب، أما الهوى فيدفعه إلى معارضة الآيات، والاستكبار عن اتباع الهدى، وإيثار الحياة الدنيا، والطغيان في الأرض.

قال تعالى: (وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ)،

والظن نتيجته التكذيب وعدم الإيمان. أما الهوى فنتيجته الإفساد والطغيان، فالتكذيب هو رفض الإيمان، والإفساد هو رفض إقامة القسط.

قال تعالى: (وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ)،

وقال: (فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى)،

وقال: (وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ)،

فالتكذيب وعدم الإيمان والغفلة عن ذكر الله اقترن مع اتباع الهوى.

وقال تعالى: (وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ)، **فالفساد سيكون نتيجة اتباع الهوى،**

وقال: (فَأَمَّا مَنْ طَغَى (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)،

فالطغيان قرين التكذيب بالله، وإيثار الحياة الدنيا قرين اتباع الهوى. [وإيثارها يعني الانغماس فيها، والعيش لها، وسحق الآخرين من أجلها]. ولذلك فأهل الجنة يخافون لقاء ربهم؛ لأنهم يعلمون

علما يقينا أنهم ملاقوه، وينهون النفس عن الهوى؛ فلا يؤثرون الحياة الدنيا، ولا يقعون في الاستكبار والفساد.

وقال تعالى: (وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ)، **فاتباع الهوى سيحيد عن العدل وهو الحكم بما أنزل الله** (فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا).



وبهذا يتبين أن الدين قائم على العلم والهدى. فالإيمان بالله يقوم على العلم لا الظن، وإقامة القسط يقوم على اتباع الهدى لا الهوى. والهدى لا يكون إلا بعلم.

ولذلك فالمسلم هو رجل قائم على العلم والهدى، لديه ميزان يزِن به كل كسب يكسبه، يزنه بالعلم والهدى، قبل أن يُقدم عليه. ولا غرو بعد ذلك أن نرى المكانة التي أولاها القرآن الكريم للعلم والحجج والبراهين والبيان، وذم الجهل والظنون والتخرصات والقول بلا علم واتباع الهوى والتقليد.

